الفصل التاسع

نشوء عبادة العذراء ماريا
إنجيـــل الطفـولـة

في القرن الميلادي الثاني، وبعدما كانت قد أنشئت أهم الآناجيل المقدسة، أخذت تظهر مؤلفات مسيحية خاصة من نوعها، قريبة من الأناجيل ملأت الفراغات الباقية في قصص حياة يسوع والناس الذين ارتبطوا به، كما وفرت هذه فرصة لعكس تلك التصورات التي شاعت في أوساط المسيحيين عند نقطة التقاء التعاليم الأرثوذكسية، واليهودية - المسيحية، والغنوصية. وتبرز بين تلك المؤلفات القصص التي رويت عن ماريا وطفولة يسوع المسيح.

ومن المعروف أن العذراء ماريا لم تشغل أي مكانة مهمة في تعاليم المسيحيين الأوائل. فالايبونتييون رأوا فيها حسب تصورهم عن يسوع، امرأة عادية، وزوجة ليوسف النجار (وقد يكون صدى هذه الرواية تردد في قول إنجيل متّى، إن ماريا أنجبت بكرها. وثمة في رؤيا يوحنا رؤيا تظهر فيها امرأة تضع طفلاً في آلام مخاض ممضة، لكن المرأة ليست من عالم البشر قط. فهي امرأة متسربلة بالشمس، يلاحقها تنين عازم على أن يدخل في حرب «مع الآخرين من ذريتها، الذين يحفظون وصايا الإله، ويشهدون ليسوع المسيح» «رؤيا يوحنا». وبمعنى آخر، إن أبناء هذه المرأة هم المسيحيون المؤمنون كلهم. وقد تكون شخصيتها هنا مجرد صورة رمزية كما هي حال شخصيات هذا العمل كلها، ترتبط بتصور اليهود - المسيحيين عن الأم الروح القدس. فوصفها يحتاج مثله مثل وصف روما: ضالة تجلس على وحش له سبعة رؤوس، إلى تأويل يفضي إلى إدراك المغزى المكنون، ولذلك فهي لا تمت هنا بأي صلة لامرأة حقيقية. ولا يشير إنجيل مرقس إلى مولد يسوع، أما والدته فلا يرد ذكرها إلا عرضاً. ويتحدث إنجيلا متّى ولوقا عن حَبَل ماريا بيسوع من غير رجل. وقد أسهب لوقا في سرد موضوعة الحبَل بلا دنس هذه إسهاباً واضحاً لدى وصفه لحدث البشارة، بشارة الملاك لماريا

يحبلها من الروح القدس. كما يحتوي هذا الإنجيل على مشهد مشابه، هو المشهد الذي يزف فيه الملاك لزكريا العجوز خبر إنجابه ولداً (هو يوحنا المعمدان). وساق لنا لوقا أيضاً وصفاً لزيارة ماريا إلى أليزابيت زوجة زكريا، إذ قضت عندها ثلاثة أشهر. ولا يعود إنجيل لوقا إلى مريم بعد ذلك سوى مرة واحدة عندما جاءت مع يسوع ويوسف إلى أورشليم في الفصح. وبعدئذٍ تختفي عملياً من الرواية. وليس هذا بغريب إذا تذكرنا أنه حسب رواية الأناجيل الثلاثة الأولى، وكذلك حسب الأناجيل اليهودية - المسيحية، أن يسوع تخلى عن والدته وأخوته. ولا تذكر هذه الأناجيل أن ماريا كانت بين النسوة اللواتي شهدن صلب يسوع وجئن في صباح اليوم الثالث إلى القبر. فقد انفرد إنجيل يوحنا، وحده بالقول، إن ماريا والدة يسوع كانت واقفة عند الصليب، وأنه عهد بها إلى تلميذه الذي كان يحبه.. وحسب أعمال الرسل أن ماريا حضرت الصلاة التي أقامها الرسل بعيد صلب ابنها يسوع، وكان معها أخوته أيضاً (أعمال الرسل). هذا هو من حيث الجوهر الأمر كل ما ورد في نصوص العهد الجديد عن العذراء ماريا.

أما اليهود فقد استخدموا شخصية ماريا في سياق انتقادهم للمسيحية، للحط من قدر يسوع الذي وصفوه بأنه ابن غير شرعي لأحد الجنود الرومان وغزّالة. وكان سيلس قد كتب في حينه عن الاتهامات التي كانت تتهم بها ماريا، كما كتب عنها أيضاً ترتوليان «بحث في عروض الترفيه». فقد اتهمت ماريا من قبل معاصريها بأنها ضالة، ووصفوا يسوع بأنه ابن امرأة ضالة ورجل نجار. وولادة يسوع غير الشرعية وضعته تلقائياً خارج اليهودية الأرثوذكسية: حسب سفر تثنية الاشتراع أنه لا يجوز لابن امرأة ضالة (حتى الجيل العاشر من ذريته)، والخصي أن يدخل عداد «طائفة الرب» (تثنية)[1]. ولم تعط إعادة النظر في تأويل العهد القديم بصفته الامتداد التاريخي للمسيحية، إمكانية لدحض تلك الاتهامات أو لإعادة تأويلها: لقد كان ينبغي دحضها. وربما كان الرد على الاتهامات الموجهة لوالدة يسوع بداية للدفاع عن ماريا، التي اكتسبت شخصيتها في أثنائه سمات جديدة تتوافق والمزاج النفسي لمسيحيي القرن الميلادي الثاني. فيمكننا أن نرى في القصص التي رويت عنها تنامي عناصر المعجزة، وهي الحالة التي كانت تميز المزاج الشعبي في ذلك الزمن، وتتوافق مع تقاليد عبادة الإلهات التي كانت حاضرة دون ريب في الوعي الباطني (في أقل تقدير) لمن اعتنق المسيحية لتوه تاركاً

١- ولكن ثمة قصة في سفر القضاة عن المدعو يفتاح وهو ابن امرأة ضالة طرده أخوته من الزوجة الشرعية. لكن يفتاح قاد جنود إسرائيل ضد أعدائهم العمونيين وهزمهم فقبله اليهود واحداً منهم، متذرعين بكون يهوه نفسه وقف معه.

الوثنية. ضف إلى هذا أن تلك القصص كانت تحاول جاهدة إعادة تقويم التاريخ اليهودي المقدس بهدف «العثور» على خطة يهوه لإنقاذ الجنس البشري عبر يسوع المسيح.

وفي «قصة يعقوب عن مولد ماريا» وما يدعى أيضاً «كتاب يعقوب»، حكاية مسهبة عن طفولة ماريا وزواجها. وقد دعت الدراسات العلمية هذا العمل: ما قبل الإنجيل. وكان هذا النص قد لاقى شهرة عريضة جداً، بخاصة في أوائل عصر القرون الوسطى، إذ ترجم إلى كثير من اللغات، بما في ذلك اللغة السورية (= السريانية - م)، والقبطية، والأرمنية، واللغات السلافية.

لقد وصل إلينا النص الإغريقي لهذا الكتاب في عدد من المخطوطات القرسطوية. أما أدق نص «لإنجيل يعقوب» هذا، فقد عثر عليه في مصر مكتوباً على بردية، ونشر في العام ١٩٥٨م (ويعرف الآن باسم بردية بودمير). وأعطيت في النص المذكور تسمية: «مولد ماريا. ورؤيا يعقوب». ويرقى تاريخ البردية إلى القرن ٣م، ولكن ربما يكون النص قد خضع لبعض المعالجة. وبما أن أوريجينوس عرف هذا النص (هو من أطلق عليه اسم «إنجيل يعقوب» في تعليقات على متى)، فإنه يجب أن يكون قد كتب على أرجح تقدير بين العامين ١٥٠ و٢٠٠م. وقد بينت مقارنة نص البردية مع المخطوطات أن إضافات قد أدخلت على هذه الأخيرة: لحظة ولادة يسوع بدأ يوسف يتحدث بصيغة المتكلم (قبل هذا المقطع وبعده جاءت الرواية في صيغة الغائب). كما يختلف أسلوب هذا المقطع عن أسلوب سرد باقي النص، ويبدو أن هذا النص المضاف قد اقتبس من مؤلف ما آخر كان قد كتب باسم يوسف. وتبدو القصة الختامية غريبة بدورها عن النص الأصل، فهي لا تمت بأي صلة لمولد ماريا ويسوع، بل مكرَّسة لمقتل زكريا وفرار زوجته الياصابات مع صغيرها يوحنا خوفاً من ملاحقات الملك هيرودوس. ومن الواضح أن هذا المقطع أضيف بعد أن كان تشكل النص الأساس نهائياً، فأوريجينوس لا يعرف عنه شيئاً. ومن الجلي أنه اقتبس من واحدة من القصص التي كرست ليوحنا المعمدان.

ولقد أدى شح المعلومات عن ماريا في الروايات الأولى، بالمؤلف إلى بناء قصته عنها استناداً إلى مصادر مختلفة: العهد القديم، والأناجيل القانونية، وروايات أخرى شفهية أو مكتوبة أنشأها مختلف الجماعات المسيحية ولم يصل منها إلينا شيء يذكر.

لقد كتب هذا الإنجيل باسم يعقوب، الذي يظهر فيه ابناً ليوسف النجار من زواج سابق. فيبدأ بوصف حزن يواكيم (الذي ينتمي إلى سلالة داود!) وحنّة وكربهما لأن يهوه لم يهبهما ذرية، وتردد هذه القصة صدى قصة النبي صموئيل التوراتي (ملوك أول أو صموئيل الأول)، التي

تقول، إنه لم يكن لزوجة ألكان ذرية، مما أثار حزنها، فصلت (ثمة في إنجيل يعقوب صلاة مماثلة رفعتها والدة ماريا). والتشابه مع النص التوراتي واضح على امتداد هذا الإنجيل كله، بل ثمة تعابير اقتبسها النص الإغريقي حرفياً. ولكنه يتضمن مع ذلك ما يتعارض بوضوح مع الواقع اليهودي الفعلي. فخلافاً للنص التوراتي حيث تتحمل حنة وحدها التقريع والثلب، يحرم هنا يواكيم بوشاية من اليهودي روبيم، من دخول المعبد، ويمنع من تقدمة القرابين، وهو أمر غير معقول يهودياً. بيد أن هذا زاد من فعالية العنصر الدرامي، وأظهر جهل اليهود لحقيقة ما كان يجري. وعلى أي حال فإن الكاتب لم يكن يهودياً مؤمناً، على الرغم من أنه استخدم النص التوراتي، وعلاوة إلى هذا فإنه كتب مؤلفه هذا في زمن لم يكن فيه للمعبد وجود، كما كانت التقاليد المرتبطة بالمعبد قد غاصت بدورها في عالم النسيان. لكن واقع الأشياء لم يكن يعني شيئاً بالنسبة إليه، فهو كتب «القصة» كما كان يجب أن تكون، وملأها برمزية خاصة اختبأت خلف ظاهر أحداث زعم أنها حقيقية. وهذا ما تتميّز به منحولات القرنين ٢-٣م. الأخرى كلها. لقد تلقى كل من يواكيم وحنة على حدة، من الملاك آية عن ولادة طفل لهما.

وحينما ولدت ماريا أعدت لها والدتها مكاناً خاصاً (مقدساً)، في حجرة النوم، وإذ أتمت الصغيرة عامها الأول، دعا والدها الكهنة والكتبيين، والشيوخ وشعب إسرائيل كله؛ فباركها كهنة المعبد، ورؤساء الكهنة وأقر الشعب ذلك («فليكن كذلك»!). ومن الواضح أن هذه القصة تربط ماريا بالتقليد اليهودي، بل على أغلب الظن بالتقليد اليهودي - المسيحي: لقد كان مشهد المباركة ضرورياً بالنسبة للمؤلف، لتعظيم ماريا أمام اليهود، رداً على الانتقادات المريرة التي كانت تتعرض لها من قبلهم بالذات. كما تظهر جلية في القصة، كما في كثير من منحولات القرنين ٢-٣م، رغبة مؤلفها لتعظيم المسيحية وترسيخ انتصارها منذ اللحظة التي ولدت فيها، وسعى المؤلف كذلك إلى تحقيق المقصد الإلهي، في أقل تقدير ابتداءً من والدي ماريا. ولما بلغت الصغيرة عامها الثالث حملتها والدتها إلى المعبد مؤدية بذلك نذرها الذي نذرته. ويعد هذا النذر بدوره مقتبساً من كتاب صموئيل، لكن المنذور هنا كان ولداً. وبالنسبة للمؤمنين اليهود كان إدخال الفتاة إلى المعبد ووضعها مقيمة في قدس الأقداس أمراً مستحيلاً في واقع الحال. ونحن لا نرى في إيراد المؤلف لمثل هذا المشهد جهلاً منه بالتقاليد الدينية اليهودية، إنما هو أراد أن يؤكد بذلك على أن كل شيء في حياة ماريا كان معجزة، الأمر الذي يضعها مباشرة فوق مستوى الناس العاديين. وتواصلت المعجزة عندما أقامت ماريا في المعبد تقتات بقوت خاص كان يحمله إليها الملاك كل يوم (ويمكننا أن نتذكر هنا الوقت الخاص الذي كان يقتات به يسوع حسب قول

فالينتين). وغدا مصيرها الآتي كله تابعاً للإرادة الإلهية. فعندما أتمت الثانية عشرة من عمرها، أمر الملاك الكهنة فدعوا الشيوخ لكي يختاروا واحداً من بينهم وصياً عليها. وكان الأرمل يوسف النجار واحداً من أولئك الشيوخ. فاختير هو نفسه مرشداً لماريا، لأن الحمامة انطلقت من عصاته، ومن المعروف أن الحمامة سوف تغدو في أذهان المسيحيين صورة الروح القدس الذي هبط على يسوع لحظة عمادته على يدي يوحنا في مياه الأردن. وحتى في تفاصيل حياتها الآتية تتكشف آيات الاصطفاء الإلهي لماريا: في المعبد آلت إليها بالقرعة قطعة القماش الثمينة، القطعة الأرجوانية الحقيقية. وللأرجوان هنا مغزى صوفي مكنون: على أي حال هكذا أوّل الأمر اللاهوتيون البيزنطيون. فكأن غزل الأرجوان يبشر «بغزل» جسد الوليد من دماء أمه.

وتعد البشارة[1]، ثم مجيء ماريا إلى أليزابيت قصة درامية وتفصيلية خاصة وضعت على أساس رواية إنجيل لوقا (ثمة جمل تتكرر هنا حرفياً)، كما يوصف بالتفصيل أيضاً رد فعل يوسف الذي حمل الملاك إليه الآية، حسب إنجيل متى. ولما بات حمل ماريا ظاهراً، ظهر خصم آخر من اليهود، هو الحنان الذي حمل الخبر إلى رئيس الكهنة. عندئذٍ أخضعوا ماريا ويوسف لاختبار «ماء الغيرة»: لقد كانت هذه عادة قديمة ترغم بموجبها المرأة المتهمة بالزنى على أن تشرب ماء مخلوطاً بالقاذورات[2]: يتحدث المؤلف هنا عن عادة كانت معروفة فعلاً لدى اليهود، وهذا ما يرغمنا على أن نفترض أنه فيما تبقى من سرده يتراجع عن سابق قصد عن المعايير الحقيقية للشريعة اليهودية التي كان على درجة ما من الاطلاع عليها. وخرج يوسف وماريا نقيين من الاختبار.

وتشغل قصة مولد يسوع مكانة بارزة في هذا المنحول. وعلى الضد من أناجيل العهد الجديد، لم يولد يسوع في بيت لحم، إنما في كهف في مكان مقفر. وكان يوستين يعرف رواية الميلاد في الكهف، الأمر الذي يوحي بأنها كانت معروفة في واحدة من الروايات المستقلة التي ربما تكون قد ظهرت بعد رواية العهد الجديد. لقد كانت لهذه الرواية رمزية لاهوتية أكثر وضوحاً من رمزية المولد في بيت لحم (إنجيل متّى)، أو في معلف البهائم (إنجيل لوقا، الذي قصد إلى إبراز حالة البساطة والفقر اللتين تناقضان رسالة يسوع السامية). وبالنسبة للقرن الميلادي الثاني، كان يمكن لرواية الميلاد في كهف لا في بيت لحم، أن تشد المسيحيين أكثر، بخاصة بعد هدم معبد أورشليم وتحويل المدينة نفسها إلى

١- لقد رأى بعض الغنوصيين، أن المسيح الأزلي نفسه ظهر لحظة البشارة ودخل جسد ماريا.

٢- في سفر العدد يعطي الكاهن المرأة المتهمة بالخيانة الزوجية «ماء مراً جالباً اللعنة».

مستوطنة رومانية تحت اسم إيليا الكابيتولية، ففي تلك الحال لم يعد لشخصية المسيا الداودي مخلص إسرائيل وباني مملكتها الجديدة أي مغزى. وهكذا بات يسوع إلهاً كونياً. وغدا مولده مولد النور في الظلمة يضيء ظلام الكهف ويطرد العتمة. وهنا بالضبط، في لحظة الميلاد، أُضيف إلى رواية المنحول الوصف الذي لا وجود له في البردية، إذ تلاشت حسب قول يوسف، الطبيعة وكل شيء حي: «وها أنذا يوسف، مشيت ولم أتحرك من مكاني. ونظرت إلى الهواء فوجدته جامداً لا يتزحزح، وتطلعت إلى السماء فرأيتها قد توقفت، وتوقف طيران الطيور وهي محلقة». لقد وقف كل شيء في الطبيعة جامداً من غير حراك منتظراً لحظة ظهور المعجزة.

أما السمة ا لتي تميزت بها عبادة ماريا في طور نشوئها، فهي اعتقادهم بعذريتها التي لا تنتهك، ولم تشر الأناجيل إلى هذا قط. ولذلك أدخلوا لدى وصف ميلاد يسوع شخصيات إضافية: القابلة المولّدة وامرأة أخرى تدعى سالومي عبرت عن شكّها في بقاء ماريا عذراء بعد الولادة، فتلقت عقابها في اللحظة عينها: شلت يدها. لكنها أسرعت تصلى مذعورة (لا وجود لهذه الصلاة في بردية بودمير)، فظهر لها الملاك وقال لها أن تقرب يدها صوب الوليد، ففعلت فشفاها. وعلى هذا النحو تبدو في هذا المنحول نزعة تقديم يسوع إلهاً كلي القدرة منذ اللحظات الأولى لمولده، ثم ظهرت هذه النزعة بأكثر ما يكون الوضوح في الكتب التي كرست لطفولة يسوع. وورد في إنجيل يعقوب مشهد السحرة، وملاحقة هيرودوس للطفل، بيد أن هذا الإنجيل لا يعرف شيئاً عن فرار العائلة المقدسة إلى مصر. وكل ما قيل فيه، هو أنه عندما سمعت ماريا أنهم يقتلون الأطفال، وضعت الطفل في المعلف. فالمؤلف استخدم هنا موضوعة إنجيل لوقا، التي من الواضح أنها كانت تحظى بقبول عريض لدى الأوساط الشعبية المسيحية، ولكن في سياق مغاير تماماً. فقد كان ينبغي ألا يظهر الإله الكلي القدرة على مقربة من البهائم، إنه لم يكن هو نفسه يسوع الذي قال، حسب أوريجينوس: «من أجل الضعفاء كنت ضعيفاً، ومن أجل الجوعى جعت، ومن أجل العطاش عطشت» (تعليقات على متّى).

إذن، تظهر ماريا في هذا المؤلف بمثابة بشير ذي صفات إلهية معترف بها من قبل رؤساء الكهنة، ولكنها عانت في الوقت نفسه من وشايات اليهود الحمقى وافتراءاتهم. لقد استخدم هذا الإنجيل روايات شتى: الرواية اليهودية - المسيحية القائمة على التقليد التوراتي، والرواية الغنوصية برمزية الظلام - النور، ورواية العهد الجديد، وكان ذلك أمراً لا بد منه، بسبب غياب رواية خاصة بسيرة حياة ماريا. وعلى أي حال فإن البدايات الأولى

والدة الإله مع الطفل زخرفة في سراديب رومانية

لعبادة ماريا قد أُرسيت. ففيما بعد، وعلى الرغم من أن إنجيل يعقوب هذا لم يدخل عداد الكتب المسيحية المقدسة، إلا أن جملة من الأعياد المسيحية قد تأسست واعتمدت استناداً إلى قصص هذا المؤلف: «ميلاد والدة الإله» و «دخول السيد إلى المعبد». وثمة منحول آخر وضع في القرن ٤م، هو «رقاد ماريا». وقد جاء هذا المؤلف يعجّ بمختلف ضروب المعجزات المستحيلة (على سبيل المثال، نزول الشمس والقمر إلى البيت الذي سجيت فيها ماريا).

وبالتوازي مع عبادة ماريا أخذت تنتشر تصورات يمكننا أن نقف على حضورها في إنجيل يعقوب أيضاً: عن يسوع المسيح بصفته إلهاً كلي القدرة أخذ منذ ولادته يعاقب ويصفح. وحظي بشهرة مميزة بين المنحولات المكملة لرواية أناجيل العهد الجديد، منحول طفولة يسوع، بين عامه الخامس وعامه الثاني عشر، ومع أن تأليف هذا العمل نسب إلى توما إلا أن نسخته الأصلية حملت اسم فيلسوف إسرائيلي. ولم توضع مخطوطاته باللغة الإغريقية إلا في زمن متأخر (مخطوط درزدن، ومخطوط بولونيا: في القرنين ١٥-١٦م، وكذلك مخطوط القرنين ١٤-١٥م الذي جاءنا من دير سيناء مرفقاً بقصة موجزة عن طفولة يسوع). وثمة أيضاً الرواية اللاتينية، والرواية السورية (يرجع تاريخ أقدم مخطوطات الروايتين إلى القرن ٥م)، والرواية السلافية القديمة، والرواية الجورجية القديمة، والرواية العربية، والاثيوبية. وعلى الأرجح أن النص الإغريقي الأصل كان قد أنشئ في النصف الثاني من القرن ٢م، عندما شاعت تعاليم الغنوصيين التي تركت تأثيرها على قصة طفولة يسوع. وكان إيرينيوس قد أشار إلى قصص الغنوصيين عن طفولة يسوع. ويشهد موقف هذا المنحول المتحرر إلى درجة كبيرة من رواية أناجيل العهد الجديد، على أن ظهوره كان سابقاً على زمن الصياغة النهائية للناموس

المسيحي، أو أن أكثر الكنائس لم تكن قد أقرت هذا الناموس بعد. ولكن استعادة هذا النص في صيغته المتماثلة لا يزال أمراً متعذراً. وعليه فقد أبرز ناشر إنجيل الطفولة، ك. تيشندورف روايتي هذا الإنجيل: المسهبة والموجزة، اللتين تختلف واحدتهما عن الأخرى بعض الاختلاف.

لقد وضع إنجيل الطفولة في العصر الذي كان قد تشكل فيه إنجيل العهد الجديد، وشاعت فيه في أوساط الجماهير المسيحية شتى القصص التي تكمل معطيات هذا الإنجيل عن يسوع نفسه وعن مولده. ومن المسائل التي كان يمكن أن تقلق المؤمنين لدى إنشاء مثل هذه الخرافات، المسألة الآتية: إذا كان يسوع قد صنع المعجزات أثناء خدمته العلنية وتحدث باسم الإله، فمتى تلقى هو نفسه هذه القوة؟ هل نالها لحظة تلقى المعمودية عندما حل عليه الروح القدس، كما رأى اليهود - المسيحيون الأوائل، أم قبل ذلك؟ فوفق رأي ر. براون، الباحث الأشهر في تاريخ العهد الجديد، أن قصة الطفولة، وكذلك قصة إنجيل لوقا عن مجيء يسوع ابن الاثني عشر عاماً إلى المعبد، كان الغرض منهما إظهار امتلاك يسوع لسمات الإعجاز كلها منذ أن كان طفلاً صغيراً (ومن حيث جوهر الأمر، منذ ولادته)، وفي غضون ذلك لم يكن المستمعون إلى قراءة إنجيل الطفولة أو قارئوه يلقون بالاً إلى أن قصة يسوع الطفل يمكن أن تتعارض مع عدم اعتراف سكان الناصرة به، فهؤلاء كان يجب من حيث المبدأ أن يفهموا تصرفاته وهو بعد طفل صغير، وبسبب عدم إيمانهم به عجز عن صنع أي معجزة أمامهم.

ولكن ليس هذا الموقف العقلاني إلى حد ما (هذا إذا كان القادمون إلى المسيحية من الوثنية قد حافظوا على شيء من عقلانية العصر القديم)، وحده الذي حدد خصوصيات إنجيل الطفولة ورواياته الكثيرة. فهذا الإنجيل عبارة عن عمل ذي طبقات متعددة، وهو من جهة يرضي حاجة المسيحي العادي إلى المعجزة التي شهدت على القدرة الكلية للمسيحية منذ لحظة ولادة يسوع، ويعكس من جهة أخرى التصورات الغنوصية للرمزية المكنونة لكل ما فعله يسوع، وهي تصورات لم تكن دائماً مفهومة فهماً واضحاً. فمن حيث الجوهر لم يعترف الغنوصيون بالطبيعة البشرية ليسوع، وحسب تصورهم أنه لم يكن مولوداً حقيقياً، إنما كان له ظاهر المولود وحسب. وفي هذا السياق نقل إلينا المؤلف الغنوصي «بيستيس» (الإيمان صوفيا)، قصة تقول، إن طفلاً (روحاً؟) دخل بيت يسوع بينما كان هذا في الثالثة من عمره، وكان الطفل شبه يسوع بالمطلق، وكان يسوع الصغير يعمل وقتئذٍ مع يوسف النجار في الكرم. فسأل الوافد: «أين أخي يسوع»؟ فراع الأمر ماريا

التي دعت الضيف إلى المجلس ومضت إلى يوسف تقص عليه ما حصل. ولما سمع يسوع الكلام سأل: «أين هو إذن، إني انتظره هنا؟» وما إن دخل يسوع الحجرة حتى تلاشى الوافد فيه تماماً وباتا كلاً واحداً، وبذلك الاندغام تم تفادي انقسام الطفل يسوع (الذي ظهر أنه كان يملك معرفة خاصة لأنه كان ينتظر الوافد)، مع ذاك الذي جاء في إهابه: المسيح - اللوغوس. الموجود منذ الأزل، والذي يملك صفات خارقة ومعرفة مطلقة[1]. لقد كان ينبغي أن ترمز أعمال يسوع في طفولته، وتتنبئ أيضاً، بما سيفعله فيما بعد. فالقصة تبدأ بالمشهد الآتي: عند جدول الماء يعجن يسوع الطفل يوم السبت طيناً ويشكل منه طيوراً، ثم يبعث فيها الحياة ويطلقها اثني عشر طيراً: رمز تلاميذه - رسله الاثني عشر الذين أرسلهم ليبشروا العالم؛ وفي المنحول، أن يسوع الزراع الصغير يجمع محصولاً لا مثيل له من بذرة زرعها: رمز انتشار المسيحية؛ وتلبية لطلب والدته حمل الماء في ردائه دون أن يريقه، لأنه كان قد كسر القدر وهو في طريقه إلى النبع، وليس الماء الذي حمله يسوع سوى رمز لماء الإيمان المحيي.

وما يسترعي الاهتمام أن كل المعجزات التي وصفت في هذا المنحول، يجري صنعها في بيئة أعمال الأب، ولهو الأطفال، وكان ينبغي لمثل هذه التفاصيل المزعومة أن تؤكد للقراء «صحة» الأحداث التي يروى عنها، ولكن مثل تلك التفاصيل لم يكن يعكس بأي حال واقع المدينة الفلسطينية التي لم يكن المؤلف يعرف عنها شيئاً. وقد دعا بعض الباحثين مثل هذه الحكايات التي أنتجها خيال الفئات الشعبية المسيحية، بالحكايات السحرية المتنوعة الشيقة. بيد أنه من غير المحتمل أن يكون المسيحيون قد رأوا في قصص طفولة يسوع حكايات سحرية، فهم لم يهتمّوا للقصة بحد ذاتها، إنما أنشؤوا نوعاً من الميثولوجيا «التاريخية» (أو التاريخ الممثلج). ولهذا بالذات لم يهتم المؤمنون حتى لتغاير مثل هذه القصص مع نصوص الأناجيل القانونية: لقد كان التقليد المسيحي الذي انعكس في المنحولات ضرباً من تقليد مبتكر نشأ وتطور من تلقاء ذاته. ولكن مؤلف إنجيل الطفولة، أو من كتبوه، سعوا في أثناء ذلك إلى إقامة رابطة شكلية بين قصتهم والنص القانوني. لقد ختموا مؤلفهم هذا بالرواية المسهبة لقصة مكوث يسوع الصغير في المعبد، التي أخذوها عن إنجيل لوقا حرفياً تقريباً، لكنهم أعطوها معالجتهم الخاصة. ولهذه المعالجة

١- وفي هذا تباين آخر مع الناموس المسيحي، فقد جاء في إنجيل لوقا الذي من الواضح أن مؤلف النص المعني كان يعرفه جيداً، أن يسوع «كان يكبر ويزداد قوة بالروح، ويمتلئ حكمة» (لوقا)، اما في المنحول فقد امتلك يسوع الحكمة منذ ان كان في الخامسة من عمره.

يحد ذاتها مغزاها: حسب الإنجيل القانوني أن يسوع جاء إلى أورشليم مع والديه، لكنه لم يعد معهما بل بقي هناك. ويقول إنجيل لوقا إن والديه وجداه في المعبد يستمع إلى المعلمين ويسألهم «.. ودهش كل من كان يسمعه، كيف استطاع وهو الطفل أن يرغم شيوخ الشعب ومعلميه على أن يقفوا حائرين أمام شرحه للناموس والأنبياء».. ولما رأى الكتبة والفريسيون والدة يسوع قالوا لها، إننا «لم نر يوماً مثل هذه الجرأة، ولم نسمع يوماً مثل هذه الحكمة» (XIX). إذن في هذه الرواية لم يكتف يسوع بأن يسمع ويجيب، إنما يرغم المعلمين على أن يصمتوا، وحتى الكتبة والفريسيون خصومه في المستقبل، أقروا حسب الكتب المبكرة، بحكمته. وفي الأماكن الأخرى التي استخدم فيها مؤلفو إنجيل الطفولة تعابير أو جملاً من الأناجيل القانونية، لم يحافظوا على أمانة الاقتباس. ففي إنجيل لوقا على سبيل المثال، يصف شهود المعجزات يسوع «بالنبي العظيم» (لوقا). أما في إنجيل الطفولة فيصفه من شهد معجزاته بأنه إله أو ملاك، ولم يوصف هنا لو مرة واحدة بأنه نبي.

وتشغل مكانة مهمة في هذا المنحول قصص العقاب الفوري الذي ينزله يسوع الطفل بكل من يعارضه، والمساعدات التي كان يقدمها للجرحى والقتلى. وقد عكست تلك القصص تعطّش الناس لمعجزات الخلاص والعقاب العاجل، في حياتهم اليومية وليس في يوم القيامة. فقد عاقب يسوع أحد أترابه لأنه رشه بماء البركة حيث كان يلعب (لقد جفّ الصغير وذبل)، أما الصغير الآخر الذي دفع يسوع، فقد سقط ميتاً من فوره، وفقد بصره كل من شكاه ليوسف، وسقط ميتاً في مكانه معلّم يسوع الذي سولت له نفسه أن يرفع يده عليه.... وغني عن البيان أن بطش يسوع هذا لا يتوافق مع الصورة التي رسمتها له أناجيل العهد الجديد، حيث قيل هناك «... لم يأت ابن الإنسان ليهلك أرواح البشر، إنما لينقذها» (لوقا)، ليس ثمة في إنجيل «طفولة يسوع» هذا أي أثر لموعظة يسوع على الجبل. فالفئات المسيحية الدنيا المضطهدة كانت تحلم بالثأر: حتى قصص العقاب، وبصرف النظر عن أيّ مغزى مكنون قد يضعه فيها الراوي أو المحرر، إلا أنها كانت تعوّض لدى هؤلاء الشعور بالذلّ والاضطهاد في العالم الوثني. ولكن يسوع الصغير أتى أعمالاً صالحة أيضاً: شفى جاره الذي جرح نفسه بالفأس، وأبرأ أخاه يعقوب من لدغة الثعبان. وعندما اعترف المعلم الآخر بأن يسوع مليء صلاحاً وحكمة، قال له الصغير، إن المعلّم الآخر سوف يعود إلى الحياة إكراماً له. وعلى هذا النحو، يبعث الكاتب الخوف في قلب القارئ، لكنه لا يلبث أن يظهر له إمكانية نيل الرحمة. لكن شريطة الإيمان بيسوع.

وفي غضون ذلك فإن كلّ عمل من أعمال يسوع، أكان انتقاماً أم إبراء، يخفي وراءه مقصداً سامياً لا يدركه عقل الإنسان العادي: يجب أن تمهّد العجائب سبيل بلوغ الحقيقة السامية. وحسب إنجيل الطفولة، أن يسوع كان يملك منذ صغره معرفة حقيقية مكنونة. وثمّة دلالة خاصة في هذا السياق لمشهد المعلّم الذي أخذ يعلّمه الألفباء الإغريقية: عندما أراه المعلّم الأحرف كلها من الألفا حتى الأوميغا، وطلب منه أن يردها، قال له الصغير: «كيف تستطيع أنت الذي لا تعرف ما هي الألفا، أن تعلم الآخرين ما هي البيتا». ثم شرع يشرح للمعلم تركيب الحرف ألفا، وما هي خطوطه، وأي سمة له في وسطه، وكيف تتلاقى الخطوط وتتباعد، والرموز الثلاثة التي للسمة عينها وكيف يرتبط واحدها بالآخر ويسانده.. ويبدو أن إيرينيوس كان على معرفة بخرافات طفولة يسوع، وربما كان على علم أيضاً بتنويعة ما من تنويعات هذا الإنجيل، إلا أنه عده إنجيلاً «مزيفاً»: لقد نقل قصة المعلم عينها: «... لما كان الرب يتعلّم القراءة والكتابة في صغره، قال له المعلّم كما هو معتاد: قل «ألفا» فقال «ألفا»، ثم عندما طلب منه المعلم أن يقول «بيتا» أجابه الرب قائلاً: قل لي أولاً ماذا تعني الألفا لكي أقول لك ما هي البيتا. وقد فسروا ذلك بأنه وحده كان يعرف الباطن الذي أشار إليه في صورة الألفا». ورأى إيرينيوس أن الغنوصيين هم الذين يقفون وراء هذا المشهد، لأنهم هم الذين استغرقوا في تأويل المغزى الباطني للأرقام والأشكال الهندسية.

ويظهر التأثير الغنوصي أكثر ما يظهر في الرواية الموجزة لإنجيل الطفولة، وفي التنويعة السورية لهذا الإنجيل، التي تعد من حيث جوهر الأمر مؤلفاً مستقلاً «في هذا الموضوع». فقصة الطفولة هنا ليست مربوطة إلى النص القانوني، الذي ربما كان المؤلف لا يقاسمه الرأي كلياً. لقد أبرزت التنويعة الموجزة أن يسوع الصغير يملك معرفة متميزة عن الماضي والمستقبل، بما في ذلك عن آجال الحياة البشرية، وهذا ما حدث به يوسف والمعلم (يمكننا أن نقرأ في هذا تلميحاً خفياً لقدرية وجود كل إنسان، الأمر الذي لا وجود له في كتاب العهد الجديد). أما في التنويعة السورية، فإن أفكار الغنوصيين أكثر وضوحاً، كما تظهر فيها أفكار الدوكيتيين الذين رأوا أن الشكل البشري ليسوع ليس سوى صورة متخيلة. وهذا ما تشير إليه كلمات يسوع ليوسف، إذ قال له، إنه ليس بين الناس المحيطين به، وأنه عندما يصعد، سوف يرمي هذه الطبيعية البشرية: «لأنني لست فيكم، مع أني أعيش بينكم. وليس لي كرامة في جسمانيتي. فأنت تعيش وفق الناموس وللناموس تخضع. أما أنا فقد كنت موجوداً قبل أن تولد أنت. وأنت تظن

أنك أبي. لأني حينما أصعد فسوف أرمي ذلك الجزء الذي معي من عشيرتك». إذن، لقد كانت أناجيل الطفولة تمثل خليطاً من المعتقدات الخرافية الشعبية والتعاليم الغنوصية الساذجة عن المعرفة الحقيقة. فيسوع الصغير يظهر هناك إلهاً رهيباً صارماً، إذ يدب الذعر من جديد في قلوب الناس، ويسلبهم الأمل، وهذا بالذات ما سعت مواعظ يسوع الناصري إلى تحريرهم منه، وكذلك إنجيل الحقيقة.